جامعة زيان عاشور – الجلفة

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم العلوم الإنسانية

المستوى: جذع مشترك أولى علوم إنسانية

المقياس: تاريخ الحضارات القديمة

إعداد: د/ أحمد ثليجي

الموضوع:

الحضارة الفينيقية

تمهيد: لقد أرسى الإنسان في منطقة الشرق الأدنى القديم أصول الحضارة الإنسانية المستقرة في جميع مظاهرها المادية والمعنوية منذ بداية استقراره وتوطنه فيها، وقد أجمع العلماء والمؤرخون على أهمية هذه المنطقة وأولويتها على جميع مناطق العالم القديم، ولأجل ذلك فقد وجهوا كل أبحاثهم وقدراتهم الفكرية والمادية لدراستها، وإبراز معالمها ومكنونها الحضاري وسجلها الحافل بالمعلومات في شتى مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفكرية.

وتعتبر منطقة سوريا والساحل الفينيقي وفلسطين(أو ما يعرف في العهود الإسلامية ببلاد الشام) محور التقاء لكافة الحضارات القديمة سواء العراقية أو الحيثية القديمة أو المصرية أو الحضارتين الغربيتين اليونانية والرومانية، وهو ما جعل هذه المنطقة تتأثر بكافة هذه العناصر الحضارية.

أهمية المنطقة: إن تركز طرق المواصلات الأساسية بين ثلاث قارات في هذا القطاع الضيق من الأرض كان يعني أنه حكم على هذه المنطقة أن تكون مسرحا لمجموعة من الهجرات والغزوات المتعاقبة دون أي فرصة دائمة لإنشاء نظم سياسية قوية ذات طابع مركزي كما هو عليه الحال في حضارات أخرى مجاورة. وقد كانت هذه المنطقة أرض تجارب للمطامع والمنافسات التجارية والحربية للدول الكبيرة التي كانت تقع بينها، وقد كانت الشعوب المهاجرة تتوافد عليها مرة بعد أخرى لأنها كانت منطقة جذابة في حد ذاتها لما تتميز به أراضيها من خصوبة عالية، يمكن دخولها من كل جانب والانتقال منها في كل اتجاه، وقد كانت هذه المنطقة مفتوحة أمام مصر وأرض الرافدين وآسيا الصغرى والبحر المتوسط، فضلا عن الصحراء التي جاء منها البدو الساميون.

أصل الفينيقيين: الفينيقيون هم شعب سام يعود موطنهم الأصلي لمنطقة شبه الجزيرة العربية التي انتقلوا منها في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد إلى الساحل السوري، ولغتهم سامية كنعانية، وقد احتفظوا بتسميتهم الأصلية كنعانيين، وهذه الكلمة مشتقة من كلمة "كناجي" " knaggi" التي تعني الصباغة الأرجوانية، أو من الفعل "كنع" " kana" الذي يعني في اللغة السامية "انخفض" ويقصد بالأرض المنخفضة هنا انخفاض الساحل الفينيقي بالنسبة لجبال لبنان التي هي امتداد طبيعي لجبال طوروس في آسيا الصغرى وبالتالي فهي تسمية جغرافية.

وفي بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد أطلق الإغريق على الكنعانيين الساكنين في غربي سوريا والذين هاجروا معهم اسم "فينيقيين" المشتق من كلمة " phoinix" أي اللون الأحمر الأرجواني.

تاريخهم ومنجزاتهم: لقد حدد تاريخ الفينيقيين شكل حضارتهم، فالعبور المستمر والتوافد الكثير لتلك الشعوب وتفاعلها بعضها مع بعض أدى إلى صورة مختلطة من الحضارة، تتكون من عناصر متباينة وقد غلب عليها الأثر السامي بفضل ما أسهمت به الشعوب السامية في سوريا وفلسطين من ناحية، وما أسهم به البابليون والأشوريون من ناحية أخرى، فقد جلب هؤلاء أهم عناصر حضارتهم إلى كنعان خلال زحفهم المتصل نحو البحر المتوسط.

ويرتبط اسم الفينيقيين ودورهم الحضاري بمنجزات كثيرة حملها الملاحون والتجار الفينيقيون الذين جابوا البحر المتوسط قبل أكثر من ثلاثة الآف سنة وفي مقدمتها الصناعة النسيجية ذات الصبغة الأرجوانية وصناعة السفن، وتطوير الملاحة والتجارة البحرية، كما اهتموا بصناعة الفخار، بالإضافة إلى إبداعهم في مجال الكتابة الأبجدية وهي كتابة محلية فينيقية يعود ظهورها إلى نهاية الألف الثاني قبل الميلاد، وقد نوه العالم الفرنسي "ديسو" "dussaud" في كتاباته بمجهودات الفينيقيين في هذا الميدان وسبقهم لكل شعوب العالم في اختراع أول أبجدية من نوعها تناقلتها فيما بعد معظم شعوب العالم.

وتاريخ الفينيقيين هو تاريخ المدن الفينيقية التي كونت منذ نهاية الألف الثالث قبل الميلاد دويلات مدن أهمها:أرواد–أوغاريت–طرابلس–صيدا–صور–جبيل–بيروت–وقرطاجة في تونس وقد ورد ذكر هذه المدن وغيرها في سجلات الفراعنة(تحوتمس الثالث مثلا) وفي أسفار الكتاب المقدس(العهد القديم) مثل سفري "يشوع والقضاة"، وكذلك في السجلات الأشورية. ومهما يكن أمر هذه المدن فإن شهرتها كانت تعتمد في أساسها على نشاطها الاقتصادي الذي هيأ لها مكانة تجارية مرموقة بين أقطار العالم القديم، وهذه المدن كانت تمتد على شريط ساحلي ضيق يمتد على أكثر من300كلم، ولا تصله بالداخل إلا مسالك متقطعة وهو ما لم يساعد على قيام دولة مركزية قوية، ولذلك كانت عرضة لضغوط الدول الكبرى في المنطقة مثل الدولة المصرية، والعراقية والحيثية.

وقد عاش الفينيقيون في عدد من المدن، لم تعرف التوحد، بل كان لكل مدينة حكمها الذاتي وملكها، وبدء من حوالي القرن التاسع قبل الميلاد ظهرت مجالس الحكماء لتحكم إلى جانب الملك، وكان بعض هذه المجالس أكثر نفوذا من الملوك، وفي وقت لاحق أصبحت معظم هذه المدن تحكمها حكومة مدنية تسمى "الشوفيت".

التجارة عند الفينيقيين: بعد التخلص من الهيمنة الأجنبية في حدود القرن ال 12 ق.م وبداية عهد الاستقلال عند الفينيقيين تحت زعامة مدينة صور، اهتم الفينيقيون بالتجارة البحرية، وشمل نشاطهم البحري التجاري كامل حوض البحر الأبيض المتوسط، وتعتبر التجارة عصب الحياة الاقتصادية عند الفينيقيين، وهذه الأهمية ناتجة عن تأثرهم بمجموعة من العوامل السياسية والاقتصادية والطبيعية والبشرية والتي كانت تحيط بمنطقة الساحل الفينيقي، وقد ساعد الفينيقيين على احتراف التجارة عدة أسباب نذكر منها:

1 - مواقع مدنهم القائمة على رؤوس متوغلة داخل البحر وعلى جزر متقطعة بالقرب من الساحل، وهذا ما وفر لهم وجود موانئ طبيعية وأحواض تصلح لبناء السفن.
2 - توفر الأخشاب التي اشتهرت بها غابات جبال لبنان على مر التاريخ ساعدهم على احتراف صناعة الأخشاب وبناء السفن بصفة خاصة.
3 - تحكم الساحل الفينيقي في الطريق الدولي الذي يصعد من وادي النيل عبر سيناء، ويربط مناطق ازدهار الحضارات القديمة في شمال سوريا وآسيا الصغرى وبلاد النهرين.

وقد كان الفينيقيون يعملون كوسطاء تجاريين في إيصال بضائع دول شرقي المتوسط إلى الشعوب التي كانت في حاجة إليها في جزر البحر المتوسط وشواطئه الغربية وسرعان ما قلدوا هذه الصناعات فأصبحت لهم بذلك شهرة صناعية خاصة في الثياب ذات اللون الأرجواني التي انفردوا بصناعتها. وصناعة الحلي والزجاج الشفاف، ومعظم هذه الصناعات المحلية ازدهرت في فينيقيا ازدهارا كبيرا في فترة الاستقلال الممتدة من أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد إلى القرن الثامن قبل الميلاد.

وقد نتج عن الازدهار الصناعي أن نشطت التجارة البحرية الفينيقية في البحر المتوسط واحتكر الفينيقيون طرقها، ثم وجهوا عنايتهم لدراسة أصول الملاحة البحرية معتمدين في ذلك على

براعتهم في معرفة الطرق البحرية التي كانوا يكتمون سرها،أو يزورون حقائقها في بعض الأحيان حتى لا ينافسهم في ذلك تجار الشعوب البحرية الأخرى، ونظرا لاعتماد الصناعة الفينيقية على مواد خام لم يكن بعضها متوفرا في فينيقيا فإنهم غادروا منطقتهم وأسسوا الكثير من المحطات والمستوطنات التجارية على طول سواحل البحر الأبيض المتوسط فمنذ 1200ق.م ظهرت المستوطنات في بحر إيجا ومالطا وصقلية وسردينيا وشمال إفريقيا وإسبانيا، وكانت قرطاجة أهم هذه المستوطنات وقد أسستها صور مع نهاية القرن التاسع قبل الميلاد.

وكان نظام تواجدهم خارج بلادهم شبيها بنظام وجودهم داخلها، يتشكل من مدن مستقلة تربط فيما بينها وحدة المصالح واللغة والدين، وتتبع رمزيا إلى المدينة الأم وهي تارة "صور" وتارة "صيدا" وفي مرحلة متأخرة "قرطاجة".

وقد كانت الأساليب التجارية القديمة للفينيقيين مع الشعوب الأخرى حسب ما رواه "هيرودوت" تتم كما يلي: حيث ينزل التجار الفينيقيون من سفنهم ما حملوه من بضائع ويضعونها على رمال الشاطئ مباشرة في حين يراقب سكان الساحل ذلك من بعيد، ثم يعود التجار إلى سفنهم مبتعدين بها قليلا في البحر.

وحين يطمئن السكان لذلك يقتربون من البضاعة ويتأملونها ثم يضعون إلى جانبها قيمة لها ربما تكون مقدارا من الذهب أو مادة أخرى وينسحبون بعيدا، يعود بعدها الفينيقيون لينظروا ما وضع زبائنهم من قيمة فإن اقتنعوا بها كانوا يأخذونها وينصرفون، وإن لم تعجبهم تركوا كل شئ في مكانه وابتعدوا في البحر مرة أخرى، فيعود عندها الزبائن لزيادة شئ على القيمة وينسحبون مجددا، وربما يتكرر ذلك عدة مرات حتى يقتنع الطرفان، وهذه التجارة الصامتة كانت تستغرق في الغالب عدة أيام وهي تتميز بالمجازفة التي يقوم بها الفينيقيون عندما يتركون بضائعهم ويبتعدون لكنهم فيما بعد اكتسبوا ثقة الكثير من الشعوب لمعاملاتهم السلمية.

الأبجدية عند الفينيقيين: إن للفينيقيين مآثر كثيرة على التقدم الإنساني، ولا شك أن نشرهم للحروف الهجائية في أرجاء العالم هو من أهم ما قاموا به، وقد سبقت الأبجدية الفينيقية كتابات أخرى نذكر منها على سبيل المثال الكتابة التصويرية التي ظهرت في مصر، والكتابة السومرية في جنوب العراق، وهما كتابتين متعاصرتين أو متقاربتين في زمن الظهور، وقد اعتمدتا في البداية على تصوير الأفكار والأشياء ثم تطورت كل منهما بطريقتها الخاصة.

وقد حدث في عام 1905 أن "فلندرز بتري" الأثري البريطاني الشهير كان يعمل في منطقة "سرابيط الخادم" في سيناء عندما عثر على كتابات غريبة على جوانب بعض مناجم الفيروز القديمة وعلى بعض النصب المقامة في المعبد ،كانت هذه الكتابات مكتوبة بحروف يشبه بعضها الكتابة المصرية القديمة، وبعضها الآخر لا يشبهها ،وحدثت محاولات كثيرة لفك رموزها ولكن منذ البداية أطلق عليها علماء الدراسات اللغوية اسم الكتابة السينائية وأدركوا الصلة بينها وبين بعض ما كان معروفا من الكتابات الفينيقية القديمة وكانت آخر محاولة للوصول إلى ترجمتها وفك رموزها هي المحاولة الناجحة التي قام بها العالم الأمريكي "أولبريت" عام1948م.

وعلى ضوء الأبحاث اللغوية المتعلقة بأصول الكتابة الأبجدية الفينيقية أمكن التوصل إلى أن الكتابة السينائية هي الأساس الذي استندت إليه الأبجدية الفينيقية وهو ما ذهب إليه العالم اللغوي "جاردنر".

أما العالم الفرنسي "مونتي" فقد اكتشف الكتابة التي وجدت على غطاء تابوت الملك "أحيرام" و المتكونة من سطرين سنة 1923 والتي قام العالم "ديسو" بدراستها وأثبت بعد المقارنة والدراسة أن هذه الكتابة المتكونة من 22حرفا ساكنا تختلف عن كل الكتابات التي سبقتها كالهيروغليفية والمسمارية ، وهي كتابة محلية فينيقية يعود ظهورها إلى نهاية الألف الثاني قبل الميلاد، وقد أشاد ديسو في كتاباته بمجهودات الفينيقيين في هذا المجال وتفوقهم وسبقهم لكل شعوب العالم في اختراع هذه الأبجدية.